Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

3 ـ التطابق بين العالمين في «روضة التعريف»:

ليس خافِياً أنَّ هذه الفلسفة الهرمسية أثرت بالـغ الأثر في الفكـر الإسلامي وخصوصاً في كثير من المتصوفة وفي بعض المؤلفين في التصوف. ولـذلك، فـإن كتاب ابن الخطيب لم يبق بمعزل عن هذا التأثير، ولا سيما أنَّهُ كتب من قبل مثقَّف شهد له معاصروه بالتفوق، مثقف كان في موقع المسؤولية، متحملاً تبعات الدفاع عما تبقى من الأندلس، وكان يعي صعوبة ذلك الدفاع إن لم تكن استحالته، ويستشرف في الآفاق انحطاط العالم الإسلامي وتقـدمَ غيره، ويقـاسم مجتمعه مـا ألم به من نكبات؛ وعليه، فإن شجرة ابن الخطيب تخفي غابة الأندلس، أو قل إنها الشجرة المأمولة التي هي تعويض عن شجرة بدأت تُصَوِّحُ وتذوي أوراقهـا وتَسَّاقَطُ أوراقـاً أوراقاً.

لقد التقى في كتاب ابن الخطيب ما تقتضيه ضرورة التعبير باللغة الطبيعية عن «أثاث الكون» بما يقتضيه النزوع إلى المعرفة فهيمنت المماثلة والمشابهة والمقابلة والمجاورة. وكَانَتْ مادَّةَ هذه الآليات الميراثُ العربيُّ الإسلاميُّ الأصيـل من قرآن وحديث وأمثال وأشعار وحكايات، والتُّراث الأجنبيُّ القـديمُ بهرمسيتـه وأفلاطـونيَّته الحديثة ومنطقه الأرسطي.

لقد تشكلت تلك المادة في صورة مستقاة من المرئي واللامرئي، من الفلاحة التجريبية وعلم النبات التجريبي ومن الفلاحة المثالية وتأثير الأفلاك في النبات ومن أصيل الثقافة ومن دخيلها، ومن المنقول والمعقول واللامعقول والمتوهم، ومِمَّا بَيْنَهَا. وكانت أداة الربط بين الطرفين هي الاستعارة بما تقتضيه من مماثلة ومشابهة ومقابلة ومجاورة.

بني كتاب ابن الخطيب على أسـاس استعارتين مفهـوميتين أصليتين تولـدت عنهما استعارات مفهومية فرعية تناسلت عنها تعبيرات استعارية. ولتبيان هذا نسوق كلام ابن الخطيب ثم نتناوله بالتحليل لنستخرِجَ ركني الاستعارة، سواء أكانت مفهومية أصلية أو مفهومية فرعية أو تعبيراً استعارياً، ولنَطْرَحَ الأساس المعرفي لاختيار المستعار منه، ولنُبَيِّنَ كيف يصبح المستعار له أخصب وأغنى من المستعار منه مما يطرح إشكال عالم الواقع وعالم الإمكان وعالم التصورات، وعالم التوهمات؛ يقول ابن الخطيب:

«وعلى ذلك ذهبت في ترتيبه أغرب المذاهب (. . .) وجعلته شجرة وأرضاً؛